عنترة والموت

ربما كان عنترة من أكثر رجال الجزيرة العربية زمالة للموت، فهو قد كان ـ بحكم مهنته ـ يعيش كل ساعاته مع الموت جنباً إلى جنب، وأحياناً وجهاً لوجه، وهو إمّا أن يكون مغيراً على حيٍّ من أحياء العرب، فيعدّ عدَّته لكي يتلقّى الهجوم المضاد. وإمّا أن يكون في عقر داره يتوقع إغارة من إحدى القبائل في أيِّ وقتٍ من الأوقات.

وبالطبع، فقد اشترك مع عنترة كثيرون في مثل هذه الحالات والتجارب الدموية، ولكن بحكم منصبه كمدافع ومهاجم، فإنه كان أكثرهم تعرّضاً للموت، وصحب الموت ـ لذلك ـ في حياته صحبة طويلة ربما هي التي جعلت الموت يعامله معاملة خاصة، فأطال عمره حتى يخيّل لنا أنه نسي الموت. ولما كانت العلاقة بين عنترة والموت علاقة حميمة وكلاهما ملتصق بالآخر، فإن كلاً منهما كان يعرف قدرة الآخر ويعامله

معاملة الندّ للندّ. ويبرز لنا هيكل هذه العلاقة في عدة أبيات من شعر عنترة.

وكما رأينا من قبل، فإن عنترة وإن توطّدت علاقته مع الموت بطريقة حميمة إلا أنه لم يكن وحده في هذا المضمار، فقد ظهر أن هناك كثيراً من العرب الشعراء ممن وجدوا أنفسهم على علاقة مع الموت جعلتهم يذكرونه في شعرهم. وكانت هذه العلاقة تتفاوت بين روح من التحدّي وبين شعور بالقدرية.

ومن أُولئك الشعراء الذين تحدّثوا عن الموت طرفة بن العبد، وكما هو معروف، فإن طرفة مات وهو في شبابه، وهذا يعني أنه عندما تحدّث عن الموت كان ممتلئاً فتوة وزهواً واعتداداً بالنفس مما جعله موضع فخر واعتزاز بما هو فيه من منعة وشباب. وكان شعوره بهذه الفتوة يجعله يتحدّى الموت غير هائب له. كما أنه كان لا يقبل من ناصحيه أن يبتعد عن مورد الحتوف. هذه الفكرة عن الموت لم تتملّك زهيراً فحسب، بل إنها كانت عقيدة عامة اعتنقها غيره من العرب، ولذلك كانوا يُقْدمون في ساحات القتال. وحتى لبيد بن ربيعة أدلى بدلوه في وصف الموت، حين قال: «إن المنايا لا تطيش سهامها».

وكان الأعشى أيضاً ممّن تناولوا الموت فتحدّث عنه:

وقد غدوتُ إلى الحانوتِ يتبعني

شاوٍ مِشَلٌّ شَلولٌ شُلْشُلٌ شَوِلُ

في فتية كسيوفِ الهندِ قد علموا

أنْ هالكٌ كُلُّ من يَحْفى ويَنْتَعِلُ

ولما كان الأعشى على ما يظهر من رواد الحانات مثله في ذلك مثل طرفة بن العبد، فإننا نراهما يمزجان الشراب في مخيلتهم بالموت الذي لا بدّ منه، ولذلك فهما لا يقبلان زاجراً أو هداية ـ لو كانت هنالك هداية في الجاهلية ـ.

هذا ما كان من أمر هؤلاء الشعراء فيما علق بالموت، فهم كانوا يؤمنون بحتميته ووقوعه. وكان عنترة من هؤلاء أيضاً، فهو مقتنع بأنّ الموت سيأتي وأنه مردّ له، ولهذا فقد نصح الآخرين مبيناً لهم الطريق السويّ في الحياة، محبّذاً للكفاح واقتحام الأهوال. وبذلك ينصح:

فلا تخشَ المنية واقتحِمْها

ودافِعْ ما استطعتَ لها دفاعا

فهو هنا يحضّ على اقتحام المنية وأن يدافع المرء في سبيلها ما استطاع، فالمسألة بالنسبة له ليست مسألة

معرفة بوجودها والوقوف موقفاً سلبياً إزاءها، بل إنه يرى أن يتحدّاها المرء بقوّة متناهية، وهذا ما لم يذهب إليه غيره من الشعراء الذين ذكرناهم.

ثم إنه يرى أن هناك بعض الجبناء الذين ينصحون غيرهم بالابتعاد عن القتال خوف الموت. وهؤلاء نفر من الناس يجب ألا يستمع الرجل إلى نصحهم؛ لأنهم جبناء:

وإذا الجبانُ نهاكَ يوم كريهة
خوفاً عليك من ازدحام الجحفل
فاعصِ مقالَتَهُ ولا تَخفَلْ بها
واقْدِمْ إذا حقَّ اللقا في الأول

والمرء بين أمرين إما أن يستمع إلى نصيحة الجبناء، فيبتعد عن القتال لينجو من الموت، أو يستمع إلى نصح عنترة، فيكون أوّل المهاجمين لأن الموت غير معروف زمانه ومكانه.

في موضع آخر يصف عنترة المَنِيّة بأنها منهل، وكل امرىء لا بدّ له أن ينهل منه، والمرء إما أن يموت أو يُقتل، ولعلّ ذلك كان له أثر على المتنبي حين قال:

ومن لم يمتْ بالسيف مات بغيرِهِ
تعددتِ الأسبابُ والموتُ واحدُ

فقد سبقه عنترة إلى قول قريب من هذا هو:

فـأجـبـتُـهـا إن الـمـنـيـة مـنـهـل
لا بـدّ أن أُسقى بكـأس المـنـهـل
فـاقْنَيْ حياءَكِ لا أبا لكِ واعلمي
أنـي امـرؤ سـأمـوت إن لـم أُقتـل

فكِلاَ الشاعرين اكتشف أن الموت آتٍ لا ريب فيه، وعليه فليس هناك ما يدعو إلى الإشفاق والخوف منه. ومثل هذه السياسة تُورد سالكيها حتوفهم بالعشرات والمئات، وقد ينجو منها عدد مماثل لذلك الذي يلقى حتفه، وربما أكثر بكثير.

ويبدو أن عنترة اهتمّ بقضية الموت، فقد كثر حديثه عنه حتى يكاد يصبح مظهراً عامًا من مظاهر شعره، وجعل يصفه بشتّى الأوصاف والفنون، وهو في كل ما يقوله يؤكّد للمرء أنّ الحرص على الحياة لا يطيلها، وأنه لذلك عليه أن يستميت في القتال غير هيّاب ولا وَجِل:

واخْتَرْ لنفسكَ منزلاً تعلو به
أو متْ كريماً تحت ظلّ القسْطَلِ

فالموتُ لا يُنجيك من آفاته
حصنٌ ولو شيّدته بالجندل

هذه هي حكمة الموت عند عنترة وزملائه من شعراء ذلك العصر. والواضح أن حياة البساطة التي كانوا يعيشونها لم تجعل للموت فلسفة أكثر من ذلك، فالحياة الفكرية لم تكن معقّدة حتى تبرز فلسفة عميقة في هذه الظاهرة الطبيعيّة، وكان الموت أمراً مقبولاً لدى الجميع لا يرون فيه أكثر من أنه منهل يشرب كل الناس منه. ولم يحاولوا أن يعقدوه كما حاول شوقي مثلاً حين رأى أن:

في الموت ما أعيا وفي أسبابه
كلُّ امرىءٍ رهن بطيِّ كتابه
النفسُ حربُ الموتِ إلاّ أنّها
أتتِ الحياةَ وشُغلها من بابِهِ

فهو يرى أن الإنسان ظهر من العدم وذهب إلى العدم، وأن كل الحياة موقوتة بكتاب. وشوقي بالتأكيد كان يفكّر في بكاء المتنبّي على جدّته حين بكاها:

إلى مِثلِ ما كان الفتى مَرْجعُ الفتى
يعودُ كما أبدِي ويُكْرى كما أزمَى

كلاهما رأى الإنسان يظهر من العدم ويغيب في العدم، وقد تزيد حياته وقد تنقص.

بيد أن عنترة لم يكن ليجد الوقت الكافي للتفكير في فلسفة ولو ضحلة كهذه؛ لأنه كان منهمكاً في مصارعة الأبطال ومسابقة الآجالْ. ومن ثمّ كان تفكيره منصبًا على أن الحياة الكريمة هي التي يحياها الرجل إذا كال لأعدائه الصاع صاعين، وأنه ليست هناك حياة كريمة لرجل ما لم تكن هذه الحياة في حمر الوقائع؛ لأن تلك الوقائع هي التي تجعل الحياة جديرة بأن يحياها الأبطال.

ولعل زمالة عنترة للموت هي التي جعلته يرى فيه البديل للعيش الكريم، ولذلك فهو لم يكن يخشى هذا البديل؛ لأن من أهم مطالبه في الحياة أن يعيش عيشاً كريماً، وهذا يعني أنه إذا وجد سوء معاملة من ذويه، فإنه إما أن يبتعد عنهم بأن يسكن بعيداً عنهم أو يمضي إلى الموت بنفسٍ راضية.

بل إنه لشدّة ما كان ملتصقاً بالموت أخذ يشعر بأنه والموت شيء واحد لا فرق بينهما على الإطلاق، وأصبح يرى نفسه جزءاً لا يتجزأ منه، ويذهب أحياناً إلى رأي هو:

إن المنية لو تمثّل مُثّلتْ
مثلي إذا نزلتْ بضنْك المنزلِ

وهذه المبالغة في وصف نفسه بطريقة تجعل الموت شيئاً متواضعاً للغاية بالنسبة إليه إنما هي من عقائد عنترة بأنه هو المنية حقًّا. ثم نراه أحياناً يجنح إلى الخيال، فيصور نفسه تصويراً حيًّا بإبراز أصل العلاقة بينه وبين الموت:

يا عبل لا تخشي عليَّ من العدا
يوماً إذا اجتمعت عليَّ جمُوعُها
إن المنية يا عبيلة دوحةُ
وأنا ورمحي أصلها وفروعها

فهو هنا يخاطب عبلة، وهو في ميادين الموت بأسلوب يختلف عمّا يتحدّث به لوالدته التي كانت تخشى عليه الموت أيضاً، ونجد أن اللّهجة التي يخاطب بها عبلة ليست صارمة كتلك التي انتهجها مع أُمّه، ونحسّ فيها بالفخر والاعتزاز والرغبة في إثارة إعجاب عبلة به. وجعل من المنية دوحة يستظلّ بها الآخرون من الأبطال، ومن الغرابة بمكان أن يستظلّ الأبطال بالموت وكلّهم يسعى إلى تجنّبه، ولكن هكذا شاء عنترة أن يجعل من أعماله البطولية الإبادة الجماعية، فهو

يقبض الأرواح بالجملة ويستخدم في ذلك يديه وأسلحته من رماحٍ وغيرها.

بمثل هذه الصور استطاع عنترة أن ينفرد دون غيره من أبطال العرب بإبراز محالفته للموت طيلة حياته الطويلة، فأصبحا لا يفترقان، وكان كلّ منهما أداة للآخر جعلته يقضي على آجال العديد من الأبطال حتى فَنِي أكثرهم، وبقيت لنا هذه الصورة الشعرية الخالدة.